من آيات الله

فى الشمس والقمر

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

من آيات الله الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته وحكمته: الليل والنهار فى تعاقبهما على حد معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم، ونور مقرر، وغير ذلك من الحكم العظيمة والآيات الباهرة.

فالليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تنبهان إلى دقة الناموس الكونى الذى لا يصيبه الخلل مرة، ولا يدركه التعطيل مرة واحدة، يظل يعمل دائباً بالليل والنهار. فالليل للراحة والسكون والجمام، والنهار للسعى والكسب والقيام.

قال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى فى سورة القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

ولا يخفى من أوليات المبادئ التى جاء بها الإسلام ومن أهم الدعائم التى قامت عليها عقيدته، واستقامت عليها حضارته مبدأ إطلاق النظر للتأمل والاعتبار، بغية الوصول فى كل أمر مشكل، أو قضية مطروحة من المقدمات إلى نتائجها، ومن المسببات إلى أسبابها، ثم من التفكير فى الخلق إلى عظمة الخالق جل وعلا.

ففى رحاب الكون يدعو الإسلام إلى أعمال العقول، وفك القيود، وترك العنان للتأمل، بغية الوصول عن طريق العقل، والنظر الصائب، والفحص الدقيق فى آفاق الكون إلى معرفة الحق الذى بيده وحده سنن الكون ونواميسه.

ومن التوافق بين نواميس الكون ووجود هذا الإنسان مشاهد الليل والنهار وقد حببها القرآن الكريم إلى الإنسان.

ولم يجعل القرآن الليل والنهار متنافرين متصارعين، أو قوتين مهلكتين، تتعاقبان على فناء الإنسان، بل بين بجلاء أن هذا التعاقب إنما هو لمنفعة الإنسان وخيره فى هذه الحياة قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢].

أما الشمس والقمر فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ فهما آيتان من آيات الله.

والشمس كرة من الغاز الملتهب. ولقد بين الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم هذا الاتقاد. فقال تعالى فى سورة نوح: ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**﴾ [نوح: ١٦].

وقال تعالى فى سورة يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**﴾ [يونس: ٥].

فالشمس وصفت بالسراج المضئ، والقمر وصف بأنه المنير أى العاكس لضوء الشمس، وهذا إعجاز لأن الناس ما كانوا يعرفون هذا زمن نزول القرآن الكريم.

والشمس مصدر إشعاع وطاقة، أما القمر الذى يعكس ضوءاً ولا يشع حرارة فإن العلماء يقولون فى هذا: أن القمر كان يشع حرارة وضوءاً كالشمس، ثم برد فذهبت حرارته ونوره، وأصبح يعكس ضوء الشمس ليلاً. ويقول ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ**

﴿مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. يقول: إن القمر آية الليل كان يضئ مثل الشمس، وأن الشمس آية النهار، فمحى الله تبارك وتعالى آية الليل أى طمس نوره لأن المحو لا يمكن أن يكون إلا لشئ موجود.

إن الشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى، تسير بنظام دقيق، محسوب لا يتعطل. قال الله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال تعالى فى سورة يس: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

إن هذه الآيات تتجلى فيها دقة التقدير فى تنسيق الكون والحركة، هذه الدقة التى لاحظ البشر جوانب منها منذ أقدم العصور، ولا يزالون يتعرفون على بعض جوانبها كلما ترقت عقولهم، وترقت وسائلهم فى الرصد والتسجيل.

لو كانت الشمس أكبر حجماً مما هى عليه، أو أشد حرارة، أو أقرب إلى الأرض لاحترق كل ما على وجه الأرض ولتعذرت الحياة عليها.

وكذلك لو كانت الشمس أصغر، أو أقل حرارة، أو أبعد مما هى عليه، لبردت الأرض وتعذرت الحياة عليها أيضاً..

ولو كانت دورة الأرض حول نفسها أو حول الشمس أسرع أو أبطأ، لحدث هذا أو كذلك.

ولو كان القمر أقرب إلى الأرض أو أكبر حجماً مما هو عليه، لارتفع المد الذى يحدثه فى مياه المحيطات بحيث يغمر اليابسة كل يوم مرتين.

وهكذا آلاف الموافقات فى تصميم الكون، وفى حركة أجرامه، وكلها تشهد بدقة الصنعة، وكمالها، وتناسقها كما تشهد باليد المبدعة، التى أبدعت هذا الكون وتشهد بالتدبير، والتقدير، كما تشهد بالتسخير، والتسيير وتنفى خرافة المصادفة، وخرافة التلقائية كما تنفى الحتمية الآلية.

إن هناك قصداً وغاية كما أن هناك تقديراً ومشيئة.

إن هذه الآيات حين نتأملها بالبصيرة المفتوحة، والقلب الواعى، ترشدنا إلى قدرة الخالق.

ومع قدرة خالق هذا الكون والشمس والقمر وعظمته التى تتجلى فى آياته الكونية فقد وجُد ناس يجحدون الله، ولا يسجدون له.

ألا يعلم هؤلاء: أن الكون، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار على عظيم خلقهم وبديع صنعهم يعبدون الله ربهم، ويسجدون له.

قال تعالى: ﴿**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٧].

فالخالق هو وحده الذى يتوجه إليه المخلوقون أجمعين، والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما. فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذى يستحق أن تعبدوه وحده لا شريك له.

* * *